المبحث التاسع:

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية

obeikandl.com

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية، وهي حضارة قد غيرت صفحة الكون إلى غير رجعة؛ حيث أضحت حضارة، وثقافة، ومنهجَ حياة مستمدًا من هذا الكتاب الكريم.

obeikandl.com

نحو منهجية معرفية للدراسات القرآنية

القرآن المجيد هو النص المؤسس الذي انبثقت واندهقت من بين ثناياه الحضارة الإسلامية، وهي حضارة قد غيرت صفحة الكون إلى غير رجعة؛ حيث أضحت حضارة، وثقافة، ومنهجَ حياة مستمدًا من هذا الكتاب الكريم، الذي جاء بمعايير جديدة، وأحدث نقلات منهجية بعيدة الغور في كينونة الإنسان، وواقع هذا الإنسان.

كما أن المعرفة قبل نزول القرآن المجيد، كانت أمرا تولده العقول في نظر الناس، لكن مع القرآن المجيد أصبحت هذه العقول تعقل ما تستكشفه من خلال النظر إلى البصائر ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾(الجاثية:٢٠)، وإلى الآيات الموجودة في الآفاق وفي الأنفس ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾(فصلت:٥٣). وهذا المنهج الذي لربانيته يبدو متفهَّما ومُدرَكا من قبل الإنسان، كان له أثره العميق في إحداث مجموعة من القطائع مع المناهج المعرفية التي كانت سائدة قبل نزول القرآن الكريم.

وقبل التفصيل في محددات المنهجية المعرفية للدراسات القرآنية، لابد من الحديث عن طبيعة هذا القرآن الذي نريد أن ندرسه؛ فنحن نعلم أنه كتاب الله المتعبد بتلاوته المعجز بلفظه الذي يبدأ بقوله تعالى: ﴿بِسْمِ

اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۞ اَلْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾(الفاتحة:١-٢) وينتهي بقوله سبحانه: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾(الناس:٦)، وهو الذي أنزل على قلب سيدنا رسول الله ﷺ ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ ۞ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾(الشعراء:١٩٣-١٩٤)، والتعريفات كلها تتمحور حول هذه المحاور، وهي تعريفات بفضل الله -وعلى سنة التعريف في الحضارة الإسلامية- جامعة مانعة ميسّرة.

وأول الدرر التي يركز علماؤنا عليها بهذا الصدد، هي أن القرآن المجيد بما أنه قول الله الذي خَلق كل شيء، فإنه قول لهذا الإنسان الذي خُلق بحسب استعداده، وبحسب متطلباته ومتطلبات واقعه، وإذا كان الأمر كذلك من لدن الذي يعلم من خَلق ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾(الملك:١٤)، فإن هذا القول يكون كأكمل ما يمكن الطموح إليه، وهو أمر قد قرره الإمام الغرناطي الأصل ابن عطية -رحمه الله- في مقدمة تفسيره الرائعة "المحرر الوجيز"[٦٥]، فكتاب الله ﷻ يتنزل بحسب تطلب هذا المخلوق وواقعه وخصائص كل ذلك، هذه قضية أولى.

القضية الثانية، أن القرآن المجيد قد جاء من لدن من أحاط بكل شيء علما، وإذا كان هذا القول قد قيل أزلا من لدن من قد أحاط بكل شيء علما، فإنه لا يمكن أيضا إلا أن يكون على وجه الكمال، وفي الناعوس الأعلى (والناعوس من الموج هو أعلاه)[٦٦] كما يقول ابن الطيب

---

[٦٥] انظر مقدمة "المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز" لابن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤٢٢هـ.

[٦٦] في الحديث: إن كلماته بلغت ناعوس البحر، قال ابن الأثير: قال أبو موسى كذا وقع في صحيح مسلم وفي سائر الروايات قاموس البحر، وهو وسطه ولجته، مادة: نعر، "لسان العرب" لابن منظور، دار صادر ببيروت، طبعة جديدة محققة، (٢٩٨/١٤).

الشرقاوي رحمه الله.

وهذا ما تدل عليه بوضوح آيات كثيرة من كتاب الله تعالى منها قول الله ﷻ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾(يوسف:٣). وهناك التفات عجيب لأحد المفسرين بصدد هذه القضية في قول الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾، حيث قال: هبوا أن شخصا عاش مائة سنة بوعي وبحضور ذهن، وجرب من هذه الحياة ما جرب، ثم بدأ يقص عن هذه الحياة وعن بعض معالمها، كيف سيكون قصصه؟ وكيف سيكون قوله؟ وما هي قيمة العصارة التي سوف تندهق من لسانه؟ سوف يكون هذا القصص لاشك قصصا رائعا، هذا باعتبار طول اللبث والمكث في هذه الحياة الدنيا. فكيف إذا كان هذا الرجل الذي عاش مائة سنة بوعي وبحضور وبنباهة، وكان من أذكى الناس ومن أدقهم ملاحظة، ومن أقدرهم على التجميع، وعلى التأثير، والإمساك بتلابيب المعاني، واقتناص شرائدها، كيف سيكون قوله؟ سيكون لا محالة كأروع ما يكون، فكيف إذا كان هذا الذي عاش مائة سنة بنباهة، وبحضور بديهة، وأطال التجربة، ثم كان ذكيا قوي الملاحظة؟ كيف إذا كان هذا الشخص أيضا عميق التأمل؟ وكان له هذا التوق على أن ينظر في القضايا لا ظاهرا، وإنما باطنا أيضا لكي يلتئم في نظره اللباب مع الصدف الباب، كيف سيكون قصصه؟ وكيف إذا كان القائل هو الله ﷻ الذي هو الأول، والآخر، والظاهر، والباطن، كيف سيكون هذا القول إذا كان هو القول الفصل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟ لا غرو أن هذا القصص أحسن القصص. ولله المثل الأعلى.

ثم يمكن أن ننطلق من هذا المستوى الاستعدادي إلى مستوى آخر

وهو الآتي: إذا كان هذا القول وهذا القصص أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني ﴿اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ﴾(الزمر:٢٣)، ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ﴾(الزمر:٥٥)، كيف إذا كان هذا القول مضمّخا بالرحمة وبالودّ، كيف لا وهو تنزيل الودود اللطيف الرحيم الذي يريد بالناس المنزل إليهم هذا القرآن اليسر، ولا يريد بهم العسر﴿يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾(البقرة:١٨٥).

ثم كيف إذا أضفنا إلى هذه الأبعاد كلها أن هذا القرآن شفاء ورحمة ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(الإسراء:٨٢)، وكيف بعد هذا كله إذا أضيف إلى هذه وتلك أن هذا القرآن المجيد مكنون إذ كان ولايزال وسيبقى مستودع حقائق الحقائق في هذا الكون، منذ بدايته وإلى نهايته، وكان مستوعبا لكل ما كان، وما هو كائن، وما سوف يكون، وما لم يكن، ولو كان كيف كان سيكون من تجارب بني آدم؟ لاشك أن هذا القول فعلا قول ثقيل لا يعتريه خفيف[٦٧]، وهو قوله سبحانه: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً﴾(المزمل:٥).

فإذا تأكد عندنا أن هذا القول ليس بالقول العادي، ولا كقول أي قائل، وإنما هو قول خالق القائلين كلهم من أول الدنيا إلى أن تنصرم، وبعد ذلك نظرنا إليه باعتباره فرقانا، أي يعطي الإنسان الفيصل بين الخطأ والصواب، وبين الحق والباطل، وبين الحسن والقبح، وبين الصلاح والفساد، وبين الشدة واللطف، إلى غير ذلك من الأمور التي يمكن أن نرسم أوساطها بجلاء من خلال الاستمداد من القرآن الكريم. فإنه سوف يتجلى لنا بما

[٦٧] كان مالك -رحمه الله- يقول: من سئل عن مسألة فينبغي له قبل أن يجيب فيها أن يعرض نفسه على الجنة والنار، وكيف يكون خلاصه في الآخرة، ثم يجيب فيها.

لا يذر شكا أن هذا القرآن المجيد بالإضافة إلى فضله العظيم، كتاب في قمة الوظيفية، وفي غاية النفع للإنسان فردا واجتماعا.

القضية الثالثة، التي نريد أن نختم بها الحديث عن طبيعة هذا القرآن المجيد، قضية تنتمي إلى باب عزيز على كثير من علمائنا، ولاسيما الشغوفين منهم بفنون القول، حيث إن النظر في هذا القرآن المجيد من الزاوية البلاغية، نظر فيه شجون.

ولا شك أن الذي يقرأ القرآن المجيد من مدخل الجرْس أو من مدخل الفواصل، أو من مدخل الاختصار، أو من مدخل الالتفات، أو من أي مبحث بلاغي أو بديعي أراد أن يدخل منه، سوف يقضي العجب كيف أن الحرف يُرتّب، والكلمة تُرتّب، والجملة ترتّب، والمعنى يرتّب، والسورة تُرتّب، في نسقية معجزة، تُزري بجمالية الماس الأصفى؛ لأن الأنوار التي تبثها هذه المفردات بحروفها، وبفواصلها لا يمكن أن يحيط بها وصف واصف أبدا.

فإرادة الإنسان، وقدرة الإنسان، حين تقترن بالطين، وتريد نحته، وتريد أن تجعل منه شيئا يذكر، فإن أقصى ما يمكن أن تصل إليه أن تصيّر هذا الطين تمثالا، لكن حين تقترن إرادة الله ﷻ بالطين فإنها تصيّره إنسانا ينظر إليك ويقول لك، ويعارضك، ويوافقك، وينصحك، وقد يثور في وجهك إذا لم ترد أن تنتفع بهذا النصح. إنسانا مبدعا له قوله، وله توقيعه، وله إحساسه. وكذلك حين تقترن إرادة الإنسان بالكلمة والحرف تصيرهما شعرا ونثرا، بيد أن إرادة الله ﷻ حين اقترنت بالكلمة وبالحرف فإنها صيّرتهما قرآنا.

وإن المقارنة بين الإنسان والقرآن لهي دون حق القرآن المجيد، الذي

قد قدَّر له قائله اللبث بين ظهراني الخلق والعباد إلى أن يأذن بغير ذلك ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:٩). أما إن نحن نظرنا من هذه الزاوية إلى الخرائط وإلى المعاني المَخمَلية التي يمكن استعراضها بالنظر إلى القرآن المجيد فإننا لن نفرغ من قريب.

من الكتاب المستبين إلى الكتاب المبين

بعد النظر في طبيعة القرآن المجيد من حيث إنه عصارة الأكوان، ومن حيث إنه أحسن الحديث، ومن حيث إنه أحسن ما أنزل إلى البشر، فإن من الأمور التي تصلح جسرا نخلص به من المبحث الأول إلى المبحث الثاني، قول الله ﷻ عن كتاب موسى عليه السلام، وهارون عليه السلام: ﴿وَآتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ﴾(الصافات:١١٧)، وقوله سبحانه عن هذا القرآن: ﴿طس تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ﴾(النمل:١)، فما الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين؟

الكتاب المستبين أوحي به في مرحلة لم يكتمل فيها بناء النبوة الذي عبّر عنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم بقوله في الحديث الصحيح، عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: "إن مَثَلي ومَثَلَ الأنبياء مِن قبلي كمَثَل رجُلٍ بَنَى بيتًا فأحسنه وأجْمَلَه إلا مَوْضِعَ لَبِنةٍ مِن زاويةٍ، فَجَعَل الناسُ يطوفون به ويَعْجَبون له ويقولون هَلَّا وُضِعَتْ هذه اللَّبِنَةُ، قَالَ ﷺ: فأنا اللَّبِنَةُ وأنا خاتِمُ النَّبِيّين"[٦٨]. وكان هذا الوحي الذي جاء مصدقا لما بين يديه، ومهيمنا عليه، خاتمة الوحي وجامعه، والذي لا يتنكر لما قبله، بل يصدق على ما هو أصيل أثيل فيه، ويهيمن عليه بهذا الانفتاح على كل

[٦٨] أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين ﷺ، حديث رقم: ٣٥٣٥(٤/١٨٦).

زمان، وكل مكان، وكل إنسان إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها.

فإذن الفرق بين الكتاب المستبين والكتاب المبين، أن الكتاب المستبين جاء لقوم مخصوصين، وفيه هدى ونور يحكم به النبيئون، كما قال الله ﷻ في حق التوراة: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ فَلاَ تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ وَلاَ تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾(المائدة:٤٤)، وكما قال سبحانه في حق الإنجيل ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾(المائدة:٤٦). لكن القرآن الكتاب المبين جاء لكي يبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن وما عليها مصداقًا لقوله ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾(المائدة:٤٨).

فما هي إذن خصائص هذا الكتاب المبين؟ وما هي مناهج التعامل معه؟ وهذا ما سنحاول الاستدلال عليه فيما يأتي.

نحو علم منهاجي في التعامل مع القرآن الكريم

من خصائص الكتاب المبين، أنه كاشف للحياة وللأحياء، وللحقائق التي يكون الإنسان مستعدا لكي يكتشفها. فالقرآن المجيد فيه، وكما يقول المربون، القدر الأعلى من البيداغوجية، أو من الديداكتيك، وهناك حقائق قد لا يكون الناس في استعداد لتقبلها في بعض الأزمنة، وفي بعض الأوقات، كما وقع لابن العربي المعافري (ت ٥٤٣هـ) والذي أثر عنه قول

جميل نقله لنا البقاعي وغيره، قال: "وقد ظهر لي أن هذا القرآن المجيد كالقول الواحد، وكالخبر الواحد، وأنه يتصل أوله بآخره، فلما لم نجد لهذا العلم حملة، ورأينا أكثر الخلق بأوصاف البطلة، طويناه، ورددناه، وجعلناه فيما بيننا وبينه تعالى"[٦٩].

إن هذا التكشف الذي يتكشف به القرآن المجيد عبر الزمن، وبحسب استعدادات الناس، وإن كان هناك من الناس في كل عصر من يفتح الله لهم أبواب بعض الاستبانات فيظهر لهم ما يظهر قد يصرّفونه وقد يطوونه، وربما يجزّئون ما يظهر لهم جزءا جزءا لكي يمرروه بحسب ذوقهم وبحسب استعدادهم، وهو قول الله ﷻ: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾(الحشر:٢١)، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى﴾(الرعد:٣١)، هذه القوة المكتنزة في القرآن المجيد، هي القوة التي يحتاج إليها عالَم مثل عالَمنا اليوم في هذا الزمان، أكثر من أي زمان مضى.

فالقرآن الكريم فيه هذه القابلية لأن يفسر الحياة والأحياء للناس، وأن يظهر لهم هذه السنن وهذه الحقائق، ولكن بحسب قوة المستمِد الذي يستمد من القرآن المجيد، وهو استمداد له آدابه وله قواعده؛ منها الآداب النفسية، والأسس العلمية، وكذلك صلاح وصفاء هذا الإقبال، ففي مجال التعاطي مع هذا الكون الذي يحتوشنا، نجد أن الإنسان يُجري حواراً مع هذا الكون من خلال طرح الأسئلة عليه، وتلقّي الأجوبة منه، وتحويل هذه الأجوبة إلى أسئلة مرة أخرى، وهي أسئلة تُطرح على الكون في

[٦٩] الإتقان في علوم القرآن، للسيوطي (٣٦٩/٣).

المختبرات، وفي صوامع البحث العلمي.

وهذا الحوار هو الذي يُخرج لنا كل هذه الأمور التي ننتفع بها اليوم، ولكنه حوار يقوم على الإيمان بشيء جازم، وهو أن هذا الكون قد بني وفق نسق، وأن فيه قوانين تحكمه، وأنه ليس فوضى، فأول اكتشاف قد حرر طاقة الإنسان الإبداعية، ومكنه من القراءة المثمرة في الكون، والحوار المثمر معه، هو إيمانه بأن هذا الكون نسق، وأنه مبني على علل، وأنه ليس فوضى، وأنه منظم، وأن وراءه مقاصد، ووراءه حكمًا يسميها البعض حكمة الطبيعة، ويسميها أهل الإيمان بحكمة الله ﷻ الذي قد أودع هذه المقاصد، وأودع هذه الحكم في خلقه الذي هو الكون، وكلما استحرّ الحوار بين الإنسان والكون إلا وأعطى هذا الكونُ خيراتِه للإنسان، وخيراته عطاء غير محظور لقوله ﷻ: ﴿كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلاَءِ وَهَؤُلاَءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾(الإسراء:٢٠)، فالكون لا يفرق بين مؤمن ولا كافر، ويعطي لمن يحاوره، وعنده هذه القدرة على العطاء إلى حين ﴿وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ﴾(البقرة:٣٦)، لأن هذا الحين سوف ينسخ ﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ ۞ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ۞ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾(الانشقاق:٣-٥)، وقوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۞ وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۞ وَقَالَ الإِنْسَانُ مَا لَهَا ۞ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۞ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾(الزلزلة:١-٥)، والوحي المقصود في هذه الآية الكريمة، وحي جديد بعدم التسخر، ولذلك يقول الإنسان ما لها؟ لماذا لا تعمل هذه السنن؟ والجواب هو، أن هذا وحي جديد نسخ الوحي القديم بالتسخر.

فإذن حوار الإنسان مع الكون بهذا الحرص، مع استبطان أن هذا

الكون نسق منظم، هو الذي يمكّن الإنسان من أن يُجريَ هذا الحوار في احترام للأبجد الكوني، واللغة التي يفهمها الكون، بحيث يصوغ أسئلته بها، وإلا فإن الكون يرفض إجراء الحوار، ومن ثم يتأبّى على التسخّر، ولذلك نجد أن هذه العلوم التي أثمرتها هذه القراءة في الكتاب المنظور ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۞ خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾(العلق:١-٢) هي التي أعطت علوم التسخير من إلكترونيك، ومن سبيرنطيقا، وطب، ومن علوم المجرة إلى علوم الذرة.

كذا الأمر بالنسبة للقراءة في الكتاب المسطور ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ۞ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۞ عَلَّمَ الإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾(العلق:٣-٥). وهي القراءة التي نجد الإمام محمد بن إدريس الشافعي (ت ٢٠٤ هـ) كان كَلِفًا بها حين كان مهتما مغتما باكتشاف دليل القياس؛ حيث قرأ القرآن وختمه مرات، يقوم به الليل، ويتبتل به إلى الله ﷻ، سائلا إياه جل وعلا أن يفتح له بدليل القياس، فما كان يتبين له، ويعاود الكَرَّة، يتحاور، وينظر في القرآن إلى أن ظهر له أن الدليل الذي يصلح أن يُستدلّ به على القياس هو قول الله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾(الحشر:٢)، وكذا الأمر بالنسبة لدليل الإجماع، وعدد من الأصول التي ضمنها في كتابه التأصيلي الرائد لعلم أصول الفقه "الرسالة". وهو ما أثر عن إمام دار الهجرة مالك بن أنس الأصبحي (ت ١٧٩ هـ) في مواضع متعددة، وهو حال الإمام ابن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) في التفسير، وغير هؤلاء من الأئمة كلٌّ في مجاله، وكل في بابه.. حوار مستمر مع القرآن المجيد، وهذه هي علوم التيسير، أخذا من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾(القمر:١٧).

وحين كف الحوار في واقعنا الحضاري مع الكون للأسف، رأينا

أننا أصبحنا نستهلك المنتجات التي ينتجها غيرنا؛ لأن علوم التسخير وكما سبقت الإشارة إلى ذلك، رهينة بالقراءة في الكتاب المنظور، وأصبحنا عالة على ما كان عندنا قبلا، قبل أن نحتك بهذه الحضارة التي استمرت في حمل المشعل الذي استلمته غلابا من عندنا، واستمرت في هذه القراءة وفي هذا الحوار، توظيفا للكشوفات التي حصلت قبلا بناء عليها وإضافة إليها. فحين كف الحوار مع الكون في عالمنا، وفي فضائنا الحضاري، أصبحنا عالة على ما كان. فحين تغيب علامات الاستفهام، يغيب المنهج، لأن الذي يشي بالمنهج ويكشف عن وجوده هو التساؤل، وهو ما يبرز في قوله سبحانه﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۞ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۞ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾(النبأ:١-٣) وتستمر التساؤلات إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾(النبأ:١٧) حيث تختم الحياة بيوم الفصل، يوم القيامة، مما يعني أن التساؤل وجب أن يكون مرافقا للإنسان إلى أن تنقضي حياته، نصوصنا اليوم فيها عقم من حيث علامات الاستفهام، وهو مؤشر على الحالة التي يوجد عليها الحوار مع الكتابين في عالمنا اليوم.

شروط المُحاوِر

والذي يستطيع أن يحاور القرآن المجيد في موضوع مخصوص، لابد أن تكون تضاريس عقله قد نحتت، ونقشت، لتكون قادرة على إجراء الحوار في ذلك الموضوع، فمثلا لا يمكن أن نتصور أن الذي سوف يستخرج بعض معالم المنهج التربوي في القرآن المجيد سوف يكون من خارج علماء التربية؛ لأنه لن يلتقط الإشارات التربوية العميقة والدقيقة الموجودة في القرآن المجيد، إلا من قد نقشت تضاريس عقله بحسب

مقتضيات هذا الفن، وأصبحت عنده الردود الأفعال التي تجعله ينتبه إلى هذه الإشارات الموجودة بخصوص التربية في القرآن المجيد.

لكن المشترك بين هذا الذي سوف يحاور القرآن المجيد في علوم التربية، وذلك أو تلك الذي أو التي سوف تحاور القرآن المجيد في علوم البيئة، أو الذي سوف يحاوره، أو تلك التي سوف تحاوره في مجال الاجتماع، أو في مجال المناهج، أو في مجال السياسة، أو في مجال السبيرنيطيقا، أو في أي مجال من المجالات، لا يمكن إلا أن يكون ذا أو ذات خلفية في هذا الباب لكي يكون الاستعداد للحوار، وبهذا تنفتح أمامنا فعلا آفاق متعددة متنوعة ومتكاملة في آن بين كل هذه الفئات، ولكن في قدر مشترك ينطلق مما تقدم، أي العلم بطبيعة القرآن المجيد، وكذلك الاستمرار في الحوار مع القرآن المجيد مع استجماع الوسائل المُمَكِّنة من ذلك، وهذه الشروط قد نص عليها علماؤنا في مظانها كالإمام السيوطي (ت٩١١ هـ) في "إتقانه"، والإمام بدر الدين الزركشي (ت ٧٩٤ هـ) في "برهانه" بكلام جامع، ومانع، يعتبر المنطلق للتعامل البنّاء مع القرآن المجيد، والذي من خلاله سوف يتمكن الإنسان من القيام بوظيفته؛ والتي هي نقل الهداية للتي هي أقوم الكامنة في القرآن الكريم إلى دنيا الناس، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩).

وهذا التقرير وحده لو أننا أعملنا فيه الفكر، واجتهدنا لفهم أبعاده، لرأينا أن ثمة اختلالا ما، فلو أننا تساءلنا سؤالا أوّلا، انطلاقا من تقرير الله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾(الإسراء:٩)، وإذ أن هذا تقريرٌ إلهي، فهل يمكن أن يأتيه الباطل من بين يديه أو من خلفه؟ هل يمكن

تصور حالة لا يهدي فيها هذا القرآن للتي هي أقوم؟ بالطبع لا. وإذا كان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم، هل حالنا اليوم ينطبق عليها أنها التي هي أقوم في كافة المجالات؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نزعم أنها داخلة في التي أقوم؟ وما هي المجالات التي يمكن أن نقرر أنها ليست داخلة في التي هي أقوم؟ وما هي معايير ذلك؟

ولا شك أن عددا من المعارف، وعددا من العلوم التي تفتّقت ذات اليمين وذات الشمال، علوم من شأنها تمكيننا من أن نبدأ في علم منهاجيّ جديد، فقط من خلال آية سورة الإسراء، مثل أن نحدد معايير التي هي أقوم في كل مجال على حدة، وأن نستدرك التخلف والتراجع عن التي هي أقوم، لكي نرجع إلى التي هي أقوم.

فإن نحن بنينا على هذا الأصل، ونظرنا إلى حال الدراسات القرآنية في هذه المجالات، ونقصد المجالات التساؤلية، سوف نتبين أن الدراسات ليست فيها بعدُ الحركية المطلوبة، ولا هذا النبض الذي تحض وتحث عليه هذه الآية. فرغم أن بين أيدينا الكتاب المحفوظ الذي يهدي للتي هي أقوم، فإننا متخلفون عن التعامل معه بهذا الاعتبار، نحمد الله ﷻ أن رب العزة: ﴿بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾(الجمعة:٢)، فكانت التلاوة التي هي مستوى من مستويات القراءة؛ لأن القراءة من قَرَأ يَقرأ، جَمَع يَجمَع، وهذا الجمع فيه كل المستويات التي يمكن تصورها من مستويات الوجود ومراتبه.

مستويات منهجية القرآن المعرفية

حين نتحدث عن منهجية القرآن المعرفية نستحضر مستويات هذه

المنهجية، ومحدداتها، وهي كالآتي:

المستوى الأول: وهو مستوى القراءة، وفعل القراءة في عالم الإنسان وفي دنياه أصبح -بحمد الله- ممكنًا بإقدار الله ﷻ لهذا الإنسان على هذه القراءة. وتجلّي هذا الإقدار في الجانبين المنظور والمسطور، كان من خلال تلقي الكلمات ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ﴾(البقرة:٣٧) وتعليم الأسماء﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾(البقرة:٣١).

هذا الإقدار هو الذي يمكّن الإنسان من تفصيل وتفكيك المجملات؛ بحيث يستطيع أن يأتي إلى مجمل ويفكّكه، وكلُّ جزء ينتج وينجم من هذا التفكيك يكون قادرًا على إعطائه اسمًا، فيضبطه في مكانه من خلال هذا الاسم، وهكذا يستمرّ في التفكيك، ويكون بعد ذلك من خلال هذه الصور والمعالم الأسمائية قادرًا على التركيب، أي إنها قراءة في اتجاهين: تفكيكًا وتركيبًا، قراءة قد أصبحت ممكنةً بسبب هذه القدرة على التسمية.

المستوى الثاني: وهو مستوى التلاوة، أي الاتباع، والتِلْو من الإبل، الفصيل[٧٠] الذي يتبع أمّه. والتلو[٧١] من الخيل كذلك هو الذي يتبع أمه الجذع[٧٢]، ونقول تتالت الخيل إذا تبع بعضها بعضا. وهو المعنى

---

[٧٠] الفصيل: ولد الناقة إذا فُصِل عن أمه، "لسان العرب"، مادة: فصل (١٨٨/١١).

[٧١] التلو: ولد الشاة حين يفطم من أمه ويتلوها، والجمع أتلاء. والأنثى تلوة، وقيل: إذا خرجت العناق من حد الإجفار فهي تلوة حتى تتم لها سنة فتجذع، وذلك لأنها تتبع أمها. والتلو: ولد الحمار لاتباعه أمه. النضر: التلوة من أولاد المعزى والضأن التي قد استكرشت وشدنت، الذكر تلو. وتلو الناقة: ولدها الذي يتلوها. والتلو من الغنم: التي تنتج قبل الصفرية. "لسان العرب"، مادة: تلا (٢٣٥/٢).

[٧٢] الجذع: الصغير السن، وأما الجذع في الخيل فقال ابن الأعرابي: إذا استتم الفرس سنتين ودخل في الثالثة فهو جذع، وإذا استتم الثالثة ودخل في الرابعة فهو ثني، "لسان العرب" مادة: جذع (١٠٣/٣).

الذي يتضح في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۞ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاَهَا﴾(الشمس:١-٢)، والذي يتلى هنا هو نور الآيات البينات، فسيدنا رسول الله ﷺ قد تلا الآيات في سياقه الذي هو المدينة المنورة، ورسم المنهج الذي به تكون القراءة، وتكون التلاوة، في استحضار للتمايزات المكانية والزمانية والذهنية التي لها تأثيرٌ وجب أن يؤخذ بعين الاعتبار، وقد سجل ﷺ حالة الحكمة؛ أي وضع الشيء في موضعه. فقراءاته ﷺ كان يقرأها باعتباره حالة السواء؛ فهو الإنسان الذي يشكل الوحدة القياسية، أي الحالة الأكمل الممكن تصورها في بني آدم عليه الصلاة والسلام، وهو الإنسان الكامل الممكن الذي تبلورت فيه كل الفضائل، وكل المزايا، ومن هذه المزايا؛ والتي تُبين صلاحية حالة السواء، وتخرجها من الأحدية إلى المحمدية، كونه ﷺ بالمؤمنين رؤوفًا رحيمًا: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ۞ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾(التوبة:١٢٨-١٢٩)، وهو ما تؤكده أيضًا الآية الكريمة: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾(آل عمران:١٥٩)، فالخروج من الأحدية إلى المحمدية، من لدن الإنسان الكامل الذي يشكل الوحدة القياسية ﷺ، هو الذي يجعل هذا التنزيل، وهذه التلاوة، تكون بحسب مقتضيات الرحمة، وبحسب مقتضيات الرأفة سيرا بسير الضعيف من أمته ﷺ[٧٣]، ورفعا برفع الحرج عن ذوي الحاجة منها.

[٧٣] إن عدم استبانة الوحدة القياسية أضحى يسبب مشكلاً مزمنًا وخطِرًا للعالمين، والذين طفقوا يبحثون عن الأبطال، ويتساءلون من هو البطل الذي يتبعونه؟ فتتعدد الدروب، وإذا بالإنسان يصبح في أمر مريج، لا يعرف من يتَّبع، وبمن يقتدي، ولا بمن يتأسّى؟

ومن رحمة الله ﷻ أن أرسى لنا نموذج الإنسان السوي في أعلى حالات السواء والكمال، وهو سيدنا رسول الله ﷺ: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ﴾(الأحزاب:٢١)، والتأسي ليس هو الاقتداء؛ وإنما هو النظر إلى المتأسى به، وأن تعلم سياقه الذي يوجد فيه، وأن تنظر إلى نفسك، وإلى سياقك، ثم تحاول أن تتمثل على الوجه الأكمل بما وقّعه في واقعه هو، وبحسب مقتضيات هذا السياق، وأن تأخذ بعين الاعتبار الفوارق التي قد تفرض ذاتها في سياقك أنت.

هذا على الصعيد الفردي، أما على الصعيد الجماعي، فالتلاوة، هي ما تم في يثرب، فكانت آنذاك تسمى يثرب، وكانت تسمى طيبة، لكن النقلة التي أحدثها سيدنا رسول الله ﷺ، بإذن الله، تكمن في أنه صَيّر هذا المكان هو "الوحدة القياسية الاجتماعية"، فأصبح اسمها بتسمية منه ﷺ، "المدينة"، بالألف واللام؛ أي أنها نموذج المدينة التي ينبغي أن يُستلهم، وينبغي أن يُنظر في معالمه، ويُؤخذ الهدي بخصوص الاجتماع البشري منه ومن خلاله كي يتم توقيعه. فإذن المدينة المنورة وحدة قياسية على الصعيد الاجتماعي، ولذلك فإن التلاوة التي تلاها ﷺ للآيات بين ظهراني الناس في حاله، وفي أسرته، وفي مجتمعه، تشكل منهج التلاوة الأمثل، والأكمل، الذي ينبغي أن يُستلهم، وهذا لعمري عمري الله روض أنف لم تطأه بعد الأقدام الكافية، وقد وجب!

المستوى الثالث: هو المستوى الذي سماه الله ﷻ ترتيلاً، والترتيل هو النضد، وهو الصفّ، وهو التنسيق في كل المستويات. والفم الرّتِل، هو

الفم الذي قد انتضدت أسنانه[٧٤]. والترتيل لا ينحصر فقط في المستوى الصوتي، بل ينتقل إلى المستوى المفاهيمي، وإلى المستوى المرجعي النسقي، ثم إلى المستوى التنزيلي، ثم إلى المستوى التقويمي، هذه المستويات يُسلم بعضها إلى بعض فإذا لم ترتل صوتا، لن تستبين ما هو الترتيل لفظا، والترتيل لفظا له مناهجه من دراسات مصطلحية ومفاهيمية وغيرها، دراسة للكلمة في بيئتها، وفي سياقها مع استحضار لضمائمها، ومشتقاتها، والتصنيف، وغير ذلك من الأمور التي تعطيك في النهاية فهما أقرب إلى الصواب للمصطلح القرآني، وهذا بدوره روض أنف، لم تطأه الأقدام الكافية وقد وجب!

المستوى الرابع: وهو المستوى النسقي، (أو الأطر المرجعية)، ويجدر التنبيه إلا أن هذا المستوى يُتوخى به أمر في غاية الأهمية[٧٥]، وهو شأن قد انتبه إليه علامة باكستان فضل الرحمن، حين تساءل قائلا: "لماذا لم نستطع في الفضاء الإسلامي أن ننتج وأن نبلور شيئا اسمه الكسمولوجيا، أو الرؤية الكلية، أو كما يقول الألمان فيلتون شونغ، أي التصور الكلي، والرؤية الكلية، التي قد يطلق عليها البعض: المنظومة الرؤيوية الفلسفية في الإسلام، يقول: لا المتكلمون، ولا الفلاسفة، ولا الفقهاء، ولا الأصوليون اهتموا بأن يقدموا الرؤية الكلية والتي لا شك تبقى فيها الفُرَج

---

[٧٤] الصحاح (١٧٠٤/٤)، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز (٣٥/٣)، "لسان العرب" (٢٦٥/١١)، تاج العروس (٢٦٢/١٤)، أساس البلاغة (ص:٢٢٠).

[٧٥] ومن علمائنا الذين اشتغلوا بهذا الشأن، الإمام ابن حزم الأندلسي (ت ٤٥٦ هـ) ولاسيما في كتابه "الإحكام في أصول الأحكام"، والإمام برهان الدين البقاعي (٨٨٥ هـ) ، وآخرين، يبقى في مقدمتهم بدون منازع الإمام أبو إسحاق الشاطبي (ت٧٩٠ هـ) في عدد من كتبه سيما "الموافقات".

النسبية، والتي يمكن أن تستكمل عبر الزمن، وهذا الأمر كان ينبغي أن يشغَل علماء العقيدة، وعلماء التصوف.."[٧٦] بحيث إن العقيدة لا ينبغي أن نقبل بحال أن تكون شيئا يستظهر فقط، إذ العقيدة تأطير للإنسان في هذه الحياة لكي يكسب في إيمانه خيرا ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لاَ يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ﴾(الأنعام:١٥٨).

ولكي أكسب في إيماني خيرا لابد من الصوى[٧٧]، ولابد من المعالم التي أهتدي بها في هذه الحياة، وعلم العقيدة، كان هو المحضن الطبيعي لهذه الرؤية الكلية، والتصور الكلي، فهي تنبؤنا عمن هو الإنسان في القرآن، وتجدر الإشارة إلى أن ثمة أبحاثا لعلمائنا في هذا الباب، كالذي دبّجه أبو الحسن الحرالي المراكشي (٦٣٨ هـ) في "مفتاح الباب المقفل لفهم القرآن المنزل" وغيره، غير أن هذه الأبحاث لم تشكل الكتلة الحرجة المتوخاة.

فعلم العقيدة كان ينبغي أن يكون، هو المحضن الطبيعي للبحث في هذه الأطر المرجعية، والأنساق القياسية، التي حين تُستجمع بشأن المواضيع المختلفة؛ (الإنسان، الحياة، المجتمع، الآخرة، الدنيا، المال، الفتنة، الهدى، الضلال، الجود، الأنساق المعرفية، التكتلات البشرية، الحركية بين الأمم تداخلا، تناقضا، تنافرا، تواؤما، تواشجا دون ذلك، فوق ذلك) هذه الأطر المرجعية تشكل المفردات التي حين تُؤثَّل، وحين

---

[٧٦] عن كتابه "الإسلام والحداثة" بتصرف.

[٧٧] الصُّوى: والأصواء الأعلام المنصوبة المرتفعة في غلظ. وفي حديث أبي هريرة: إن للإسلام صوى ومنارًا كمنار الطريق، ومنه قيل للقبور أصواء. قال أبو عمرو: الصوى أعلام من حجارة منصوبة في الفيافي والمفازة المجهولة يستدل بها على الطريق وعلى طرفيها، مادة: صون، "لسان العرب" (٣١٠/٨).

تُجمع، يمكن أن تُحرر لنا طلائع هذه الرؤية الكلية والشمولية، التي يحتاج إليها المسلمون اليوم؛ لأن الفاعلية الحضارية تنطلق من امتلاك رؤية ناظمة عن الوجود، والحياة، والأحياء.

ولا يخفى أن الذين يمتلكون الفاعلية في دنيا الناس إنما يمتلكونها لاستبطانهم رؤية معينة، فمثلا حين تنظر إلى الحضارة الغربية الراهنة، تجد أن عندها دافعية، وإن كانت دافعية نحو مآلات لا يمكن أن نطمئن إليها جميعها، ولكنها دافعية على كل حال، وهي دافعية تأتي من كونهم قد استكملوا رؤية معينة، وتصورات كسمولوجية معينة، مثلا نجد باحثين من أمثال فيبر، ومن أمثال ديدرو، ومن أمثال ماركس، ومن أمثال نيتشه، قد بحثوا في هذه الجوانب التصورية، وتكامل هذه الأبحاث أعطى ما يسمى مركزية الإنسان، ومركزية الإنسان نسق قياسي، وإطار مرجعي يمكن أن يكون مدخلا للتعامل مع علوم السياسة، فيصبح الإنسان لمركزيته، هو مدار العلوم السياسية، ومدار كل ما جاء بعد ذلك من حقوق الإنسان، ومن حريات، وغير ذلك، مما نروج وسطه اليوم في عالمنا، مما هو منفرج، وخارج.

وهذه الرؤية -أي مركزية الإنسان- التي نحن إن رجعنا بها إلى القرآن المجيد سوف نجد بينها وبين الرؤية التي في القرآن المجيد جملة تفاوتات. وهذه التفاوتات وجب أن يتم ضبطها، وهذا الضبط ينبغي أن يكون تعارفيا، وهذا هو بعض ما يمكن أن يفهم من قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾(الحجرات:١٣)؛ لأن الحكمة المتعالية الكاملة، منال لا يمكن الاقتراب منه إلا بالتكامل، كما أن الكعبة لا يمكن النظر إليها من أوجهها كاملة ثم السقف، إلا لمن نظر إليها

من مختلف الزوايا، وكذا الحكمة فإن لها هذه الأوجه كلها، وقد فُرض الطواف في الحج، وفي العمرة، لكي تتعلم أن الطواف هو وحده الذي يمكن أن يُطلعنا على الحكمة من مختلف الزوايا، علما أنها مستويات لا تزال أيضا بدورها تحتاج إلى جهود مستأنفة.

المستوى الخامس: هو المستوى التنزيلي الذي استرعى اهتمام مجموعة من العلماء وخاصة العاملين منهم المكابدين، ففصلوا في كيفيات التنزيل، وفرعوا القول في شروطه ومناطات -تخريجا وتحقيقا وتنقيحا ـ ومقاصده ومآلاته.

وتجدر الإشارة أن ثمة مجموعة من التطبيقات أنجزت بهذا الصدد، والتي يغلب على الظن أن الدافع فيها كان هو الإخلاص، ولكن الإخلاص لم يكن الإحسان مفارقا له في بعض الأحيان، ولله درّ الفضيل بن عياض (ت ١٨٧ هـ) حين قال في حق قول الله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾(الملك:٢) قال: "أحسنُ العمل: أخلصه وأصوبه"[٧٨].

فإذن المستوى التنزيلي وجب أن يبحث فيه بإزاء الإخلاص عن الصواب، وهذا أيضا يفتح المجال أمام دراسات مستأنفة، البشرية اليوم في أشد الحاجة إليها، حتى يكون التنزيل تنزيلا بحكمة. وهذا التنزيل تفرض على الباحث العالم المسلم فيه علوم أخرى يجد لها بهذا المنظور موقعا، وقد كان يتساءل قبل ذلك عن موقعها قبل أن يستدمج همّ التنزيل؛ فتعلم مثلا أن علم مقاصد الشريعة، سوف يمكنك من التنزيل الأوفق، على وجه الحكمة، لمقتضيات التلاوة التي قد انتقلت من اللفظ إلى

---

[٧٨] انظر "حلية الأولياء وطبقات الأصفياء"، لأبي نعيم الأصبهاني (المتوفى: ٤٣٠هـ) السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م (٨/٩٥).

المعاني، إلى الأنساق القياسية والأطر المرجعية، ثم أفضت إلى التنزيل.

وعلم أصول الفقه يصبح له محل أيضا، فيبحث فيه عن الحلول للمشاكل التي تراكمت بسبب طول الركود والخمول، إلى غير ذلك من العلوم التي إذا تم التعامل معها بهذه المنهجية المعرفية لدراسة القرآن المجيد، سوف نجد أنها كلها أجزاء من سورة معرفية جميلة موحدة يمكن -إن شاء الله- أن تعطينا الدافعية المطلوبة لكي نكون أمة لا تكون هملا، ولا تكون من سقط المتاع كما قال القائل.

نخلص من هذا كله، إلى أن العلم بطبيعة القرءان المجيد ووظيفته، يفضي إلى العلم بمستويات التعامل مع هذا الوحي الخاتم، مستويات القراءة، ومستويات التلاوة، ومستويات الترتيل فالتنزيل فالتقويم؛ وهي مستويات يفضي بعضها إلى بعض في تكاملية فذّة، كما يعصم من السقوط في النزول بالكلام الإلهي إلى مرتبة الكلام البشري، فالكلام الإلهي متعال عن الزمان والمكان، لذا وجب التعامل معه بمنهج مستمد من داخله يراعي طبيعته وخصائصه، فتنطلق بذلك القدرات التفسيرية كشفا عن مكنونات الكتاب الكريم عبر الزمن.

فالعلم بطبيعة القرءان المجيد وبمستوياته، يمكّن من الرؤية الكلية المؤطرة لحركة الإنسان فردا واجتماعا، سواء في علاقته مع ربه، أو مع كلام ربّه، أو مع نفسه، أو مع بني جنسه، أو مع محيطه، الرؤية الممكّنة من الإبصار للآيات والاستبصار بها. والتي تقوم وتنبني على أساسها المنهجية المعرفية القرآنية، بكل أبعادها ودلالتها.

نسأل الله ﷻ أن يوفقنا للتعاون على هذا الورش الحضاري الكبير، وأن يلهمنا أن نكون إن شاء الله.

obeikandl.com